من مباحث التداولية في البلاغة العربية.

From deliberative investigations inarabic rhetoric.

عزالدين عماري
جامعة محمد بوضياف بالمسيلة (الجزائر).[1]
الإيميل المهني:azzeddine.ammari@univ-msila.dz

تاريخ الإيداع: 2021/00/00 تاريخالمراجعة:2021/00/00 تاريخ النشر: 2021/00/00

ملخص:

إن استعادة الثقة في الذات وإتاحة الانخراط في الدرس اللغوي الحديث بجرأة، إنما تعود – في نظر عبد السّلام المسدّي-إلى عدم الانبهار بهذا الأخير، والنظر إلى تراثنا القديم على أنه مصدر مهم يمكن أن يجيب عن الكثير من الأسئلة التي يطرحها هذا الدرس الحديث والتي يمكن أن تكون أيضا نقاط تلاق بين الدّرسين.

ومن منطلق أن كلا من البلاغة والتداولية تُعنيان بإيصال - تبليغ - الخطاب إلى المتلقي وفق سياق معين يرد فيه، كما أنهما تتشاركان في أنهما تعنيان أيضا بدراسة مناحي الكلام، أو تجاوز دراسة اللغة إلى ما يحيط بها من متكلم ومتلقٍ، يأتي هذا البحث ليرصد بعضا من المباحث التي تمثل نقاطا للتلاقي بين الدرسين البلاغي العربي القديم والتداولي حتى يتبين من خلال ذلك تلك العلاقة العميقة بينهما من جهة و يتبيّن وعي البلاغيين القدامى بمفاهيمالتداوليةومباحثها من جهة أخرى .

الكلماتالمفتاحية:البلاغة، التداولية، الخطاب، الأفعال الكلامية، الحجاج.

Abstract

Restoring self-confidence and allowing to engage in the modern linguistic lesson boldly, is due - in the view of Abd al-Salam al-Masdi - to not being impressed with the latter, and seeing our ancient heritage as an important source that can answer many of the questions raised by this modern lesson, which can be To be also points of convergence between the two lessons.

On the basis that both rhetoric and pragmatism are concerned with conveying - communicating - the discourse to the recipient according to a specific context in which it is presented, and they also share in the fact that they also mean studying aspects of speech, or transcending the study of language to the surrounding speaker and receiver, this research comes to monitor some of the Investigations that represent points of convergence between the two ancient Arabic rhetorical and deliberative lessons, so that through this the deep relationship between them becomes clear on the one hand, and the awareness of the old rhetoricians of deliberative concepts and their investigations on the other side is evident.

Keywords:

Rhetoric, deliberative, discourse, verbal verbs, arguments.

تمهيد:

يقولُ حازمٌ القرطاجني في كتابه منهاجُ البلغاء وسراجُ الأدباء: « كيف يظنُّ إنسان أن صناعة البلاغة يتأتّى تحصيلها في الزّمن القريب، وهي البحر الذي لم يصل إلى نهايته مع استنفاذ الأعمار؟ »[1]، ولربما يعود ذلك لارتباطها بتحقيق التواصل، فهي تعد – بحق- نظرية متكاملة تتناول كل ما يرتبط باستعمال اللغة وممارستها مما له علاقة بالتواصل، من هنا تتشكل تلك العلاقة بين البلاغة والتداولية ، ذلك أن موضوع التداولية هو أيضا استعمال اللغة بوصفها وسيلة تواصل بهدف ممارسة فعل على المتلقي ، وبالتالي يتفق المنظور البلاغي والتداولي في مراعاة الملابسات الخارجية والعناصر السياقية المختلفة؛لأن المتكلم في الأصل قد راعى هذه الظروف والملابسات المقامية التي تحقق لرسالته اللغوية أقصى درجات التواصل ، تأثيراً أوإقناعاً، ولربما حكمنا كم يرى " ليتش/ Leitch.V "، بأن «البلاغة تداولية فيصميمها؛ إذ إنّها ممارسة الاتصال بين المتكلم والسامع بحيثيحلان إشكالية علاقتهمامستخدمين وسائل محدّدة للتأثر على بعضهما»[2].

ومنه فإن هذا البحث يسعى إلى بيان بعض القضايا في اللسانيات التداولية والتي تمتد بجذورها إلى درسنا البلاغي القديم وتلتقي معه في كثير من المفاهيم والحدود، وقبل ذلك سنعمد أولا إلى التعريف بكل من البلاغة والتداولية.

01- مفهوم البلاغة:

أ.لغة:

جاء في " معجم مقاييس اللغة " : الباء واللام والعين أصل واحد صحيح، وهو الوصول إلى الشيء، نقول: بلغت المكان، إذا وصلت إليه[3].

وفي لسان العرب، البلاغة من: بلغ الشّيء يبلغ بلوغا وبلاغا: وصل وانتهى، وأبلغه هو إبلاغا وبلّغه تبليغا...، والبلاغ: ما يُتبلّغ به ويتوصّل إلى الشّيء المطلوب،والبلاغ: ما بلّغك[4].

وقد وردت في النص القرآني بمعنيين : أولهما الانتهاء والوصول وذلك في قوله ﷻ:﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَ اهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِين ﴾[5]، وقوله أيضا:﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَ الِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الانْفسُِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾[6]، وثانيهما الفصاحة وحسن القول، وذلك في قوله تعالى:﴿أولَئِكَ الذِينَ يَعْلَمُ اللهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾[7].

ب. اصطلاحا:

البلاغة في معناها الاصطلاحي الوصول والانتهاء إلى الغاية، وهي تتحقق في الكلام متى كان مطابقا لمقتضى الحال مع فصاحتة، و تتحقق عند المتكلم متى أحسن إفهام السامع، يقول أبو هلال العسكري: «البلاغة كل ما تبلغُ به المعنى قلب السامع فتمكنه في نفسه كتمكنه في نفسك مع صورة مقبولة ومعرض حسن »[8].

والجاحظ في كتابه " البيان والتبيين" يقصد البلاغة النثرية الشفوية، وخصوصا الخطابية، ويحدّد لها أربعة معاني كبرى، هي:

– البلاغة هي الانتهاء إلى الغاية في التبيين والإفهام بأفضل أسلوب. وهذه هي بلاغة المتكلم.

– البلاغة هي الجودة أو الحسن الذي يوجد في الكلام. وهذه هي بلاغة الكلام.

– البلاغة هي الكلام البليغ نفسه،...

– البلاغة هي صناعة الكلام البليغ[9].

أورد "ابن رشيق القيرواني" في كتابه "العمدة "طائفة من أقوال العرب الذين يعرفون بدورهم البلاغة منها: و سئل بعض البلغاء: ما البلاغة؟ فقال: قليل يُفهم وكثير لا يُسأم، ... وقيل لأحدهم ما البلاغة؟ فقال: إصابة المعنى وحسن الإيجاز، ... وسئل بعض الأعراب: من أبلغ الناس؟ فقال : أسهلهم لفظا، وأحسنهم بديهة. ..، وقال خلف الأحمر: البلاغة لمحة دالة ، وقال الخليل بن أحمد: البلاغة كلمة تكشف عن البقية ، وقال المفضل الضبي: قلت لأعرابي: ما البلاغة عندكم؟ فقال: الإيجاز من غير عجز، والإطناب من غير خطل ، ...وقال معاوية لعمرو بن العاص: من أبلغ الناس؟ فقال: من اقتصر على الإيجاز وتنكب الفضول، وسئل ابن المقفع ما البلاغة؟ فقال: اسم لمعان تجري في وجوه كثيرة: فمنها ما يكون في السكوت، ومنها ما يكون في الاستماع ، ومنها ما يكون في الإشارة، ومنها ما يكون شعرا ومنها ما يكون سجعا، ومنها ما يكون ابتداء، ومنها ما يكون جوابا، ومنها ما يكون في الحديث، ومنها ما يكون في الاحتجاج، ومنها ما يكون خطبا، ومنها ما يكون رسائل، فعامة هذه الأبواب الوحي فيها والإشارة إلى المعنى، والإيجاز هوالبلاغة،... وقيل لبعضهم: ما البلاغة؟ فقال إبلاغ المتكلم حاجته بحسن إفهام السامع،... وقال آخر: البلاغة معرفة الفصل من الوصل ، وقيل: البلاغة حسن العبارة، مع صحة الدلالة، وقيل البلاغة أن يكون أول كلامك يدل على آخره وآخره يرتبط بأوله،... وقالو البلاغة ضد العي، والعي العجز عن البيان،... وقيل لإبراهيم الإمام: ما البلاغة؟ قال: الجزالة والإطالة ،... وقال العتابي: وقيم الكلام العقل، وزينته الصواب، وحيلتهالإعراب، ورائضه اللسان، وجسمه القريحة، وروحه المعاني.

وقال عبد الله بن محمد بن جميل المعروف بالباحث : البلاغة الفهم والإفهام وكشف المعاني بالكلام، ومعرفة الإعراب والاتساع في اللفظ والسداد في النظم والمعرفة بالقصد والبيان في الآداء، وصواب الإشارة وإيضاح الدلالة والمعرفة بالقول والاكتفاء بالاختصار عن الإكثار وإمضاء العزم على حكومة الا خ تيار، وقال وكل هذه الأبواب محتاج بعضها إلى بعض كحاجة أعضاء البدن إلى بعض...[10].

ومن تعريفاتها أنها « تأدية المعنى الجليل واضحا بعبارة صحيحة فصيحة لها في النّفس أثر خلاّب مع ملاءمة كلّ كلام للموطن الذي يقال فيه، والأشخاص الذين يُخاطَبون»[11].

والبلاغة الجديدة لا تخرج في مفهومها عن نطاق المفهوم القديم للبلاغة، والذي هو إيصال المعنى إلى السامع والتأثير فيه حتى تحصل الإفادة. وهذه البلاغة الجديدة هي نظرية الحجاج، والتي تهدف إلى دراسة التقنيات الخطابيّة، وتسعى إلى إثارة النّفوس وكسب العقول عبر عرض الحجج[12].

02/ مفهوم التداوليّة:

أ- لغــة:

الجذر " دولَ ":

في الصحاح: « الدّولة في الحرب:أن تُدال إحدى الفئتين على الأخرى. يُقال: كانت لنا عليهم الدَّوْلَةُ والجمع الدِّوَلُ. والدُّولة بالضمِّ،في المال، يقال:صار الفيء دُولَةً بينهم يتداولونه، يكون مرَّة لهذا ومرَّة لهذا والجمع دُولاتٌ ودُوَلٌ...»[13].

وفي أساس البلاغة للزمخشري: « دالت له الدولة، ودالت الأيام بكذا. وأدال الله بني فلان من عدوهم: جعل الكرة لهم عليه... والدّهر دُوَلٌ وعُقَبٌ ونُوَبٌ وتداولوا الشَّيء بينهم. والماشي يداول بين قدميه: يراوح بينهما، وتقول دواليك أي دالت لك الدَّولة كرَّة بعد كرَّة وفعلنا ذلك دواليك أي كرَّات بعضها في أثر بعض...»[14].

وفي لسان العرب لابن منظور:«صار الفيء دولة بينهم يتداولونه مرّة لهذا ومرّة لهذا، والجمع دولات ودول ...، وقال الزجاج: الدولة اسم الشيء الّذي يتداول والدولة الفعل والانتقال من حال إلى حال وفي حديث الدّعاء: حدّثني بحديث سمعته من رسول الله –صلى الله عليه وسلم -، لم يتداوله بينك وبينه الرّجال، أي لم يتناقله... ودالت الأيام أي دارت، والله يداولها بين الناس، وتداولته الأيدي: أخذته هذه مرّة وهذه مرّة... ويقال: تداولنا العمل والأمر بيننا»[15].

نصل مما سبق ذكره إلى أن معنى التّداوليّة لا يخرج عن إطار التحوّل والانتقال.

ب- اصطلاحا:

مصطلح التّداوليّةهو التّرجمة العربيّة للمصطلح الفرنسي La Pragmatiqueوالمصطلح الانجليزيPragmatics، وهو يعني العلم الّذي يهتمّ باللّغة أثناء الاستعمال، ومن ثم فهي تسمى " علم الاستعمال اللّغوي "، ذلك أنها تسعى إلى إيجاد القوانين الكليّة للاستعمال اللّغوي والتّعرّف على القدرات الإنسانيّة للتّواصل اللّغوي[16].

ويعتبر "تشارل موريس" هو أوّل من استعمل مصطلح التّداوليّة في الثّقافة الغربيّة، وهو يقصد بها العلاقات بين العلامات ومستعملي هذه العلامات [17]؛ وهو بهذا المفهوم يتجاوز المجال اللّساني في دراسة اللّغة إلى ما هو غير لساني.

والتداولية تدرس الظاهرة اللّغوية كونها ظاهرة خطابية، إذ إنها تدرس استعمال اللّغة في الخطاب، أي أنهاتهتمبالمعنىكالدّلالةوبعضالأشكالاللّسانيةالتيلا يتحددمعناهاإلاّ منخلال استعمالها[18].

و التداولية تحقق مبدأ " لكل مقام مقال "، إذ إنها تهتم «بالتّلاؤم بين التّعابير الرّمزيّة والسِّياقات والمرجعيّة والمقاميّة والحديثة والبشريّة »[19]، وهذا مما يعين على إنجاح العمليّة التخاطبية التّواصليّة بين طرفي الخطاب " المتكلّم ، السّامع".

03- من مباحث التداولية في التراث البلاغي العربي:

ننطلق مما أقره الدارسون المحدثون من أن البلاغة تداوليّة في صميمها، كونها الممارسة الاتّصالية بين المتكلّم والسّامع[20]؛ و أن كلا منهما- البلاغة والتّداوليّة - تهتمّان بالأمور نفسها من خطاب ومتكلّم وسامع واتّصال وتأثير، لنرصد بعضا من القضايا التي تمثل نقاطا للتلاقي بين الدرسين البلاغي العربي القديم والتداولي حتى يتبين من خلال ذلك تلك العلاقة العميقة بينهما من جهة و يتبين وعي البلاغيين القدامى ب مفاهيمالتداوليةومباحثها من جهة أخرى، وذلك كما يلي:

أ- تداولية الخطاب:

ما يميّز التّداوليّة أنّها تهتمّ بكلّ ما يحيط باستعمال اللغة من خطاب ومتكلّم ومتلق أي طرفي الخطاب، والأحوال والظروف المحيطة به، وهذاما يعرف بالمقام؛ إذ يهتمّ هذا الأخير بالظروف الخارجيّة المحيطة بالكلام. على اختلافها. لأنّ معنى العبارات لا يتّضح ولا يكون جليّاً إلاّ إذا روعيت الأنماط الحياتيّة للجماعة المتكلّمة، وكذا الحياة الثّقافيّة والعاطفيّة والعلاقات التي تؤلّف بين الأفراد داخل المجتمع[21].

إن قضية المقام أو مقتضى الحال في البلاغة قضية تداوليّة، فنحن إذا ما عدنا إلى تراثنا لوجدنا أن هذه الفكرة واحدة من الأسس الرئيسة التي تأسس عليها درسنا البلاغي العربي القديم، ولعل تعريفَ البلاغة على أنها "مطابقة الكلام لمقتضى الحال"، يلتقي مع هذا المفهوم، كما أنه لا يمكن فصل الكلام عن المقام اعتبارا لمقولة أنه لكلّ مقام مقال، ولا يمكن أن يفهم الخطاب دون ذلك.فلكل قوم ما يناسبهم من خطاب، فالخواص من الناس يناسبهم الكلام الجزل، وأما العوامّ ورعاع القوم فيناسبهم السخيف، كما يكون الغريب من الكلام والوحشيّ للبدو والأعراب، يقول الجاحظ: «وكما لا ينبغي أن يكون اللفظ عاميّا، وساقطا سوقيّا، فكذلك لا ينبغي أن يكون غريبا وحشيّا، إلاّ أن يكون المتكلّم بدويّا أعرابيّا؛ فإن الوحشيّ من الكلام يفهمه الوحشيُّ من النّاس، كما يفهم السّوقي رِطَانةَ السّوقي. وكلامُ النّاس في طبقات كما أن الناس أنفسَهم في طبقات. فمن الكلام الجزلُ والسّخيف، والمليح والحسن، والقبيح والسّمجُ، والخفيف والثّقيل، وكلّه عربيّ وبكلٍّ قد تكلّموا... »[22].

وإلى جانب الخطاب نجد أيضا " المتكلم / المخاطِب "، والذي له دور بارز في البلاغة العربية القديمة، بوصفه منتجَ الخطاب وباعثَه، ولأنه وحده الذي يستطيع تحديد الدلالات ومقاصدها، بل إن المعنى في كثير من الحالات مرتبط بما ينويه وما يقصده، ولقد اهتم درسنا البلاغي منذ القديم بما ينبغي أن يكون عليه المتكلم من علم بأحوال الخطاب المختلفة، ودرايةٍ بأقدار السامعين ومنازلهم، بحيث يخاطب كل سامع بما يناسبه، ومن ذلك مثلا حين يميز أبو هلال العسكري بين السؤال والاستفهام،فيقول : « ... وذلك أن المستفهم طالب لأن يفهم، ويجوز أن يكون السائل يسأل عما يعلم وعمّا لا يعلم فالفرق بينهما ظاهر،... »[23]، و حين يميز أيضا بين الخبر والحديث من حيث إن الخبر محصوراً في الإخبار به عن نفسك و عن غيرك، وأصله أن يكون الإخبار به عن غيرك[24]، وكذلك بين الخبر والأمر، حيث إن الأمر لا يتناول الآمر، لأنه لا يصح له أن يأمر نفسه، ولا أن يكون فوق نفسه في الرتبة ، فلا يدخل الآمر مع غيره في الأمر ، ويدخل مع غيره في الخبر،...[25].

ومما نجده أيضا هو أن تعريف الخبر ذاتِه قائم على المتكلم، يقول ابن فارس: « الخبر ما جاز تصديق قائله أو تكذيبُه »[26].

ومن عناصر دورة الخطاب، إضافة إلى المخاطِب نجد أيضا " السامع/ المخاطَب"، وهو يحظى في تراثنا البلاغي بأهمية لا تقل عن أهمية المتكلم، ولئن كان المتكلم هو منشئ الخطاب ومنتجُه، فإن السامع هو من يُنْشَأ له الخطاب ومن أجله، وهو مشارك في إنتاج الخطاب مشاركة فعالة، وإن لم تكن مباشرة، فالمتكلم حين يراعي مقام الخطاب، وأحوال السامع، وما إلى ذلك من ظروف الحديث المختلفة، لهو دليل على حضور المخاطَب في كل عملية إبلاغية، وهو إن لم يكن حاضرا عيانا فهو حاضر في ذهن المتكلم، وهذه الميزة هي من أهم ما تتسم به اللسانيات التداولية.

ومن أمثلة اهتمام البلاغيين العرب القدامى بالسامع حديث أبي العباس المبرد إلى الكندي الفيلسوف، فحين ذكر هذا الأخير للمبرد من أنه يجد في كلام العرب حشواً كثيرا، يظهر من قولهم "عبد الله قائم "، و"إن عبد الله قائم

"، و "إن عبد الله لقائم "، والمعنى واحد، فأجابه المبرد بأن المعاني مختلفة "فعبد الله قائم" إخبار عن قيامه، و" إن عبد الله قائم" جواب عند سؤال سائل، و" عبد الله لقائم" جواب عن إنكار منكر [27]، ومن خلال هذا يمكن القول بأن البلاغة العربية ميزت بين ثلاثة مخاطَبين:

- المخاطَب خالي الذهن من الحكم الذي تضمنه الخبر، ويسمى الخبر في هذه الحالة خبرا ابتدائيا، يتمكن في ذهن المخاطَب لمصادفته إياه خاليا.

- المخاطَب الشاك المتردد، يكون حين يتردد المخاطب في حكم الخبر، ولا يعرف مدى صحته، فيلجأ المتكلم إلى تخليصه من تردده بأن يعمل على تقويته بإدخال "إن" أو "اللام" على الجملة "إن عبد الله قائم" ويسمى الخبر عندها خبراً طلبيا.

- المخاطَب المنكر للخبر إنكارا يحتاج إلى أن يؤكّد بأكثر من مؤكد، ويكون مثلا بإدخال "إن" و "اللام" معا، والخبر يسمى إنكاريا[28].

وقد ورد في " الإيضاح في علوم البلاغة" للخطيب القزويني عن الكلام أنه «كثيراً ما يخرج على خلافه، فيُنزَّل غير السائل منزلة السائل، إذا قدم إليه ما يُلوِّح له بحكم الخبر، فيستشرق له استشراق المتردد الطالب، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الذِّينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُون ﴾[29]، وقوله:﴿ وَمَا أُبَرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوء ﴾[30]...، وكذلك يُنزَّل غير المنكر منزلة المنكر، إذا ظهر عليه شيء من أمارات الإنكار،... وكذلك يُنزَّل المنكر منزلة غير المنكر، إذا كان معه ما إن تأمله ارتدع من الإنكار، كما يقال لمنكر الإسلام، الإسلام حق، وعليه في قوله تعالى: ﴿ لَارَيْبَ فِيه﴾[31] »[32].

ب-الأفعال الكلاميّة:

ظهرت في خمسينيات القرن العشرين مع "أوستين/ j.l.Austin" في كتابه "نظرية أفعال الكلام" و"سورل/ J. R. Searle " في كتابه " أفعال اللغة "، وهذه النظرية ربطت البلاغة الجديدة بأفعال الكلام تقريرا وإنجازا؛ والنص الأدبي من هذا المنظور يتجاوز مجرّد الإخبار ليهدف إلى تغيير وضع المتلقي عبر مجموعة من الأفعال الإنجازية، ومنه فإن النص يستحيل إلى أفعال كلامية تتجاوز الأقوال والملفوظات إلى الفعل التأثيري الذي يتركه ذلك الإنجاز.

تبنى نظرية الأفعال الكلامية على ثلاثة عناصر رئيسة، هي: فعل القول، والفعل المتضمن في القول، والفعل الناتج عن القول.

فالأول عبارة عن ألفاظ تحمل في طياتها دلالة إخبارية مطلقة، مثل: أشكرك، والثاني هو الفعل الإنجازي الذي يحدّد الغرض من القول، وذلك مثل فعل الأمر: اِذهب، والثالث هو ما ينتج عن القول من آثار لدى المخاطَب إثر فعل القول، كالإقناع أو الإرشاد أو التوجيه، وغيره.

وتحضر هذه المستويات الثلاثة للفعل الكلامي جميعها في الوقت ذاته، وبدرجة متفاوتة، وهي التي تجعل هذا الفعل الكلامي تاما. وهذا ما يجعل الجملة عند "أوستين" ثلاثة مستويات: مستوى إخباري وهو مجموع الألفاظ والمعاني، ومستوى إنجازي حَرْفي يدرك مقاليا، ومستوى إنجازي مستلزم يدرك مقاميا، وهو ما يعني أنّ "أوستين" يربط بين الأقوال والأفعال، وبين المقام والمقال.

تقوم نظريّة الأفعال الكلاميّة عند " أوستين " على أن الفعل الكلامي هو الوحدة الصّغرى التي بفضلها تحقّق اللّغة فعلا بعينة؛ من طلب وأمر وتوكيد وتصريح وسؤال [33]، و" سيرل " لا يختلف عن " أوستين " في أن وظيفة اللغة لا تنحصر في وظيفتي التواصل والتبليغ؛ بل تتعداهما إلى وظيفة الفعل، كون المتكلم لا ينتج كلمات دالة على معنى بل يقوم بفعل ويمارس تأثيرًا[34].

قامت نظرية الأفعال الكلامية على نقد الفكرة القائلة أن كل الأقوال تخضع لمعياري الصدق والكذب، فإذا طابقت الواقع تكون صادقة وإذا خالفته تكون كاذبة، ليتم بذلك إنكار الفكرة القائمة على أن وظيفة اللغة تقتصر على وصف الوقائع، سواء أ كان الوصف صادقا أم كاذبا، وهذا ما أُطلق عليه المغالطة الوصفيّة [35]، ليرى " أوستين " أن هناك أفعالا يمكن أن توصف بالصدق أو الكذب، ولا تصف الواقع، وإنما عند إنشائك قولا، فإنك لا تنشئه حقا وإنما تنشئ فعلا، ليتم بذلك تقسيم الأفعال إلى إخبارية تصف الوقائع الخارجية وتخضع للصدق والكذب، و إلى أدائية تُعتبر الإنجاز الفعلي للفعل فلا تخضع لمعياري الصدق والكذب، وإنما تخضع لمعياري التّوفيق أو الإخفاق.

يذهب الدارسون المحدثون إلى أن ما قدمه البلاغيون العرب القدامى في باب " الخبر والإنشاء"، لا يختلف عما تعرضه نظرية الأفعال الكلامية الحديثة، ذلك أنهم تناولوه من حيث علاقة " الخبر والإنشاء" بالخارج، فالخبر ما احتمل الصدق أو الكذب بالنظر إلى درجة مطابقته للخارج أو مخالفته، أما الإنشاء فلا يرتبط مفهومه بالصدق والكذب، ويتميز بأن مدلوله يتحقق بمجرد النطق به.

ج-الحجـاج:

انبثقت النظرية الحجاجية من نظرية الأفعال الكلامية بإضافة فعلين، هما:

- الاقتضاء القائم على ما ينقله المرسِل إلى المرسَل إليه، بشكل ضمني في الخطاب، وبالتالي فهو غير صريح "ضمني".

- فعل الحجاج: وهو ما يقوم به المتكلّم وتنعكس آثاره على المخاطب[36].

ظهرت النظرية الحجاجية مع كل من " بيرلمان/ Perelman"، " لوسي تيتيكا " في كتابهما "الوجيز في الحجاج: البلاغة الجديدة "، وتبلورت فيما بعد مع "ستيفان تولمان" في كتابه "استعمالات الدليل أو الحجة" ، و "شارل هامبلان" في كتابه "الأوهام".

إن الهدف من الحجاج حسب " بيرلمان" هو «دراسة تقنيات الخطاب التي تسمح بإثارة تأييد الأشخاص للفروض التي تقدم لهم، أو تعزيز التأييد على تنوع كثافته »[37]، ومنه فإن الهدف هو الإقناع، ودور الحجاج يقف عنده، وذلك بأن يكون الخطاب منسجما مع المخاطبين، وهذا لا يتأتى إلا بمعرفة مستوى العقول التي يهدف المحاجج إلى إقناعها، إذ عليه « أن يضع في الحسبان مستوى العقول التي يهدف إلى إقناعها وكذلك على الوعي بنوعيتها، فالاهتمام هنا مركز على الجوانب الاستدلالية التي تستعمل على تعاضد العقول المخاطبة وانسجامها مع الطرح المقدم»[38].

تُبنى النظرية الحجاجية على فكرة مفادها أننا نتكلّم من أجل تحقيق التّأثير [39]؛ وهذا ما يؤكده " ديكرو"حين يذكر بأنّ كلّ قول يحتوي على فعل إقناعي، فأنت حين تتكلّم يعني أنّك تحاجج " كل قول = حجاج "، وأن وظيفة اللّغة لا تقتصر على وظيفة التواصل والتبليغ فقط، وإنما تتعداها إلى الوظيفة الحجاجيَّة[40].

وإذا كان الحجاج يهتم بمجموع الاستراتيجيات التي يستخدمها المتكلّم من أجل إقناع مخاطبه، أي استخدام تقنيات البلاغة في الإقناع والإفهام، فإننا حين ننظر في تراثنا البلاغي نجد كثيرا من المحطات تحمل هذا المفهوم، وبصيغ مختلفة منها البيان والمقام.

فمن خلال تحديد "الجاحظ" لمفهوم " البيان "، في قوله: « اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وهَتَكَ الحجاب دون الضمير ، حتى يُفضي السامعُ إلى حقيقته، ويهجُم على محصوله كائنا ما كان ذلك البيانُ، ومن أي جنس كان الدليل؛ لأن مدار الأمر والغايةَ التي إليها يجري القائل والسامع، إنما هو الفهم والإفهام، فبأي شيء بلغْتَ الإفهامَ وأوضحْتَ عن المعنى فذلك هو البيان في ذلك الموضع »[41]، نستخلص بأن البيان عنده يهتم بالفهم والإفهام، يقول "محمد العمري" : « مفهوم البيان عند الجاحظ مفهوم إجرائي: أي إنه العملية الموصلة إلى الفهم والإفهام في حالة اشتغالها... فالشيء المركزي الثابت في كتاب البيان والتبيين هما الفهم والإفهام بالوسائل المختلفة: الوسائل اللغوية والإشارية خاصة »[42]، ومنه فإن المشروع البياني عند الجاحظ يُستخلص في نظريتين أساسيتين، هما: نظرية المعرفة ونظرية الإقناع والتأثير[43].

نجد الحجاج البلاغي يتجلى عندهم أيضا من خلال حديثهم عن المقام ، يقول السّكاكي: « مقامات الكلام متفاوتة، فمقام التّشكّر يباين مقام الشّكاية، ومقام التّهنئة يباين مقام التّعزيّة، ... ولكلّ من ذلك مقتضى غير مقتضى الآخر.

ثمّ إذا شرعت في الكلام، فلكلّ كلمة مع صاحبتها مقام، ولكلّ حدّ ينتهي إليه الكلام مقام، وارتفاع شأن الكلام في باب الحسن والقبول وانحطاطه في ذلك بحسب مصادفة الكلام لما يليق به، وهو الذي نسمّيه مقتضى الحال»[44]؛ أي إن مقام الكلام يختلف باختلاف أحوال المخاطبين، فكلام الحزن يختلف عن الفرح، وكلام التهنئة يخالف كلام التعزية، أي أن أشكال الاستعمالات اللغوية حين الاتصال تتنوع وتختلف بحسب مقتضيات هذا الاتصال.

ومن كل ما سبق ذكره نصل إلى التأكيد على أن حضور التداولية قوي وقديم جدا في تراثنا البلاغي؛ ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا بأن البلاغة العربية تداوليّة في صميمها، وقفنا على ذلك من خلال الوقوف على بعض النماذج والتي نسجل من خلالها ما يلي:

- كل من البلاغة والتداولية يحقق التواصل بين طرفي الخطاب " المتكلم / المستمع"، إذ لا يتحقّق الكلام دون وجود التّواصل، ولا تواصل إلاّ باستعمال اللّغة.
- كل من البلاغة والتّداوليّة ينظران في المتكلّم وأحواله أثناء الاستعمال، وفي العلاقة بين المتكلم والمتلقّي، وإذا كانت التداوليّة تبحث في استعمال اللّغة في سياق معيّن، فإن هذا يقابله في تراثنا البلاغي العربي ما يطلق عليه: "مطابقة الكلام لمقتضى الحال".
- أفعال الكلام في الدراسات التداولية يقابلها في تراثنا البلاغي العربي وبالضبط في علم المعاني باب الخبر والإنشاء، كما أن التقسيمات البلاغية التي وُضعت لأسلوب الخبر وأضربه هي تقسيمات تداولية صريحة.

- يسعى المتكلم من خلال الحجاج على حمل المستمع على الإذعان وعلى إقناعه بشتى الآليات، ومراعاة جميع الاستراتيجيات التي يستخدمها حسب المقام، فإننا حيننظرفيتراثناالبلاغينجدكثيرامنالمحطاتالتي تحملهذاالمفهوم،وبصيغمختلفةمنهاالبيانوالمقام.
- وفي الأخير يمكن أن نقول أنّ كلاّ من البلاغة العربية واللسانيات التّداوليّة متكاملان، فهما يتداخلان ويتشابكان في قضايا عديدة تقدم دليلا واضحا على حجم الاستفادة التي يمكن أن تعود بالفائدة على البلاغة العربية إذا ما تعومل مع تراثنا اللغوي بكل علمية وموضوعية.

هوامش وإحالات المقال

[1] - حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تح: محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت/ لبنان، ط:2، 1981، ص88.

2 - ينظر: صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، أغسطس 1992م، ص:89.

3 -ينظر:أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، د.ط، د.ت، مادة: بلغ.

4- ينظر: ابن منظور: لسان العرب، تح:عبد الله علي الكبير و محمد أحمد حسب الله و آخرون،دار المعارف القاهرة، مادة: بلغ

5- سورة يوسف، الآية: 22.

6- سورة النحل، الآية:07.

7- سورة النساء، الآية: 62.

8- ينظر: أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين، الكتابة والشعر، تح: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، منشورات المكتبة العصرية، صيدا/ بيروت، د ط، 1986م، ص:10.

9- ينظر: محمد عزام، المصطلح النقدي في التراث الأدبي العربي، دار الشرق العربي، حلب/ سوريا، د ط ، د ت، ص:74، 75.

10-ينظر: ابن رشيق القيرواني، العمدة في صناعة الشعر ونقده، صححه: السيد محمد بدر الدين النعساني الحلبي، مطبعة السعادة، مصر، ط: 01، 1907، ص:161، 166

11- علي الجازم و مصطفى أمين، البلاغة الواضحة، دار المعارف، د ط، 1999، ص:08.

12- ينظر: صابر الحباشة، التداولية والحجاج مداخل ونصوص، صفحات للدراسات والنشر، دمشق، سوريا، ط1، 2008، ص:15.

13- إسماعيل بن حماد الجوهري، الصحاح، تاج اللُّغة و صحاح العربيّة، تح: أحمد عبد الغفور عطّار، دار العلم للملايين، بيروت/لبنان، ط 4، 1990، ج1، مادة: دول.

14- أبو القاسم جار الله الزّمخشري، أساس البلاغة، تح: محمد باسل عيون السُّود، دار الكتب العلميّة بيروت/ لبنان، ط1، 1998، ج1، مادة: دول.

15- ابن منظور: لسان العرب، مادة: دول

16- ينظر: مسعود صحراوي ، التداوليّة عند العلماء العرب، دراسة تداوليّة لظاهرة "الأفعال الكلامية" في التراث اللساني العربي، دار الطليعة، بيروت/ لبنان، ط1، 2005، ص: 16، 17.

17-ينظر: آن روبول وجاك موشلار ، التداوليّة اليوم: علم جديد في التواصل، تر: سيف الدين دغفوش ومحمد الشيباني، دار الطليعة، بيروت/ لبنان، ط1، 2003، ص:29.

18- ينظر: المرجع نفسه، ص162.

19- فيليب بلانشيه، التّداوليّة من أوستين إلى غوفمان، تر: صابر الحباشة، دار الحوار، ط1، 2007، ص18.

20- ينظر: نعمان بوقرة: اللّسانيات، اتجاهاتها وقضاياها الرّاهنة، ص166.

21-ينظر: المرجع نفسه، ص: 20.

22 - أبو عثمان عمرو بن الجاحظ، البيان والتّبيين، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط7، 1998م، ج1، ص144.

23- أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، تح: محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة، القاهرة، د ط: 1998، ص:.37

24- ينظر: المرجع نفسه، ص: 40

25- ينظر: المرجع نفسه، ص: 42

26- ينظر: ابن فارس، الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، تح: مصطفى الشويمي، مؤسسة بدران للطباعة والنشر، بيروت/ لبنان، 1963م، ص: 179.

27- ينظر: الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، دار الكتب العلمية، بيروت/ لبنان، د ط، د ت، ص: 24

28- ينظر: أبو يعقوب السكاكي، مفتاح العلوم، ص:171،170.

29- سورة هود، الآية 37.

30- سورة يوسف، الآية: 53.

31 -سورة البقرة، الآية:02.

32 - الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، ص:24، 26.

33-ينظر: دومينيك مانغونو، المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، تر: محمد يحياتن، الدّار العربيّة للعلوم ناشرون، بيروت/ لبنان، ط 1، 2008، ص07.

34.ينظر: نوّاري سعودي أبو زيد، في تداوليّة الخطاب الأدبي "المبادئ والإجراء"، بيت الحكمة، الجزائر، ط1، 2009، ص:27.

35-ينظر: محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللّغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعيّة، الإسكندرية، د ط، 2002، ص:43.

36.ينظر: دليلة قسيمة ، استراتيجيات الخطاب في الحديث النّبوي، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في اللّغة العربيّة وآدابها تخصص لسانيات الخطاب، جامعة الحاج لخضر/ باتنة، 2011/ 2012، ص: 146.

37- صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، ص: 74.

38- محمد ولد الأمين، حجاجية التأويل في البلاغة المعاصرة، المركز العالمي لدراسات أبحاث الكتاب الأخضر، طرابلس، ط:01، 2004، ص:18.

39..ينظر: صابر الحباشة، التّداوليّة والحجاج مداخل ونصوص، ص:21.

40.ينظر: إيمان دردوني ، الحجاج في النّص القرآني سورة الأنبيّاء أنموذجا، مذكّرة لنيل شهادة الماجستير في اللّغة العربيّة ، جامعة الحاج لخضر/ بباتنة، 2012 ـ2013، ص: 36.

41- الجاحظ، البيان والتبيين، ص: 76.

42- محمد العمري، البلاغة أصولها وامتداداتها، إفريقيا الشرق، المغرب، د ط، 1999، ص: 191.

43- المرجع نفسه، ص: 194.

44- أبو يعقوب السّكّاكي، مفتاح العلوم، ضبط: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت/ لبنان، ط:02، 1987، ص: 168.

قائمة المصادروالمراجع:

- القرآن الكريم.

-أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، د.ط، د.ت.

-ـــــــــــــــ، الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، تح: مصطفى الشويمي، مؤسسة بدران للطباعة والنشر، بيروت/ لبنان، 1963م.

- إسماعيل بن حماد الجوهري، الصحاح، تاج اللُّغة و صحاح العربيّة، تح: أحمد عبد الغفور عطّار، دار العلم للملايين، بيروت/لبنان، ط4، 1990.

- آن روبول وجاك موشلار،التداوليّة اليوم: علم جديد في التواصل، تر: سيف الدين دغفوش ومحمد الشيباني، دار الطليعة، بيروت/ لبنان، ط1، 2003.

- إيمان دردوني، الحجاج في النّص القرآني سورة الأنبيّاء أنموذجا، مذكّرة لنيل شهادة الماجستير في اللّغة العربيّة ، جامعة الحاج لخضر/ بباتنة، 2012 ـ2013.

-حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تح: محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت/ لبنان، ط:2، 1981.

- الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، دار الكتب العلمية، بيروت/ لبنان، د ط، د ت.
- دليلة قسيمة ، استراتيجيات الخطاب في الحديث النّبوي، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في اللّغة العربيّة وآدابها تخصص لسانيات الخطاب، جامعة الحاج لخضر/ باتنة، 2011/ 2012.
- دومينيك مانغونو، المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، تر: محمد يحياتن، الدّار العربيّة للعلوم ناشرون، بيروت/ لبنان، ط1، 2008.
- ابن رشيق القيرواني، العمدة في صناعة الشعر ونقده، صححه: السيد محمد بدر الدين النعساني الحلبي، مطبعة السعادة، مصر، ط:01، 1907.
- صابر الحباشة، التداولية والحجاج مداخل ونصوص، صفحات للدراسات والنشر، دمشق، سوريا، ط 1، 2008.
-صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، أغسطس 1992م.
- أبو عثمان عمرو بن الجاحظ: البيان والتّبيين، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط7، 1998م.
-علي الجازم و مصطفى أمين، البلاغة الواضحة، دار المعارف، د ط، 1999.
- فيليب بلانشيه، التّداوليّة من أوستين إلى غوفمان، تر: صابر الحباشة، دار الحوار، ط1، 2007.
- أبو القاسم جار الله الزّمخشري، أساس البلاغة، تح: محمد باسل عيون السُّود، دار الكتب العلميّة بيروت/ لبنان، ط1، 1998.
- محمد العمري، البلاغة أصولها وامتداداتها، إفريقيا الشرق، المغرب، د ط، 1999.
- محمد ولد الأمين، حجاجية التأويل في البلاغة المعاصرة، المركز العالمي لدراسات أبحاث الكتاب الأخضر، طرابلس، ط:01، 2004.
- محمد عزام، المصطلح النقدي في التراث الأدبي العربي، دار الشرق العربي، حلب/ سوريا، د ط، د ت.
-محمود أحمد نحلة،آفاق جديدة في البحث اللّغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعيّة، الإسكندرية، د ط، 2002.
- مسعود صحراوي: التداوليّة عند العلماء العرب، دراسة تداوليّة لظاهرة "الأفعال الكلامية" في التراث اللساني العربي، دار الطليعة، بيروت/ لبنان، ط1، 2005.
- ابن منظور: لسان العرب، تح:عبد الله علي الكبير و محمد أحمد حسب الله و آخرون،دار المعارف القاهرة.
- نوّاري سعودي أبو زيد، في تداوليّة الخطاب الأدبي "المبادئ والإجراء"، بيت الحكمة، الجزائر، ط1، 2009.
-أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين، الكتابة والشعر، تح: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، منشورات المكتبة العصرية، صيدا/ بيروت، د ط، 1986م.
- ـــــــــــــــ الفروق في اللغة، تح: لجنة إحياء التراث العربي، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط: 1997.
-أبو يعقوب السّكّاكي، مفتاح العلوم، ضبط: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت/ لبنان، ط:02، 1987.